مَناط الفعل الأخلاقي وخصائصه في التصور الإسلامي

الشيخ جعفر السبحاني

تعريب: حيدر نجف

الكلمات المفتاحيّة: الأخلاق، الإسلام، المادة، الإنسان، التخيير والتسيير، الوحي، الله.

تعتبر العلاقة بين الأخلاق والإنسان محور معظم الفلسفات، لذلك، يقدم الشيخ جعفر السبحاني في هذا البحث "مناط الفعل الأخلاقي بحسب الفهم الإسلامي" مقدمًا لذلك بمقدمة بسيطة تتحدث عن محورية الإنسان في الأخلاق، ليعود بعد ذلك إلى الحديث عن الجذور الداخلية للأخلاق، و"حسن الفعل وقيمه"، و"دور التخيير" و"العلاقة بين الإنسان ونزعاته الداخلية".

ويحلل الكاتب خلال عرضه الكثير من المصطلحات مثل النية والعمل الصالح والقضايا المطلقة، وضمان التطبيق للقيم الأخلاقية، ويختم بنتيجة تستعرض محاور القضايا الأخلاقية. عرف اليونانيون القدماء، والأوروبيون المعاصرون نظمًا أخلاقية متعددة، تولى مؤسسوها التعريف بها والدفاع عنها. إلا أن معظم هذه النظم يعود إلى ما بعد عصر النهضة، حيث تغيرت أساليب البحث ومناهج الدراسة، إلى أن انبثقت فكرة "العلمانية" وفصل الدين عن الدولة أو "نبذ الدين" بتعبير أصح.

وفي مثل هذه الظروف، انبرى دعاة فصل الأخلاق عن الدين، إلى تدوين وعرض جملة نظم أخلاقية، سنتطرق في بحوث لاحقة للمناطات السائدة فيها أما الذي نود إيضاحه في هذا المقام فهو النظام الأخلاقي في التصور الإسلامي وخصائصه.

إن صياغة أي نظام أخلاقي رهن بمعرفة الإنسان، فما لم يحط مؤسس النظام الأخلاقي علمًا ومعرفةً بالإنسان، لن يسعه فرز القيم الإيجابية من أضدادها، وتميز القضايا الباعثة على السعادة من القضايا المفضية إلى الشقاء، فالغاية من إطلاق النظم الأخلاقية رسم طريق السعادة والهناء، وما لم يُعرف الإنسان، لم تعرف أسباب سعادته وشقائه. وإذا واجهتنا نظم أخلاقية تتضارب مع بعضها جوهريًّا، فمرد ذلك إلى تباين مؤسسيها في معرفتهم للمخلوق الإنساني، وهو تباين يترك بصمات واضحة على رسم القيم الأخلاقية وتبيينها.

وسنعمد هنا إلى تعريف الإنسان من وجهة نظر الإسلام، ليتجلى لنا كيف أنه أسس مدرسته الأخلاقية على أساس معرفة عميقة بالإنسان، على أنه من الضروري أولًا تحديد مناط الفعل الأخلاقي من وجهة نظر الإسلام واختلافه عن الفعل العادي. لهذا ستكتسب المقدمة التالية أهمية خاصة لاستيعاب مجمل البحث.

مناط الفعل الأخلاقي في الإسلام

كثرت التجاذبات بشأن ماهية الفعل الأخلاقي، وفروقه عن الفعل العادي. فتناقش العلماء والمفكرون في هذه الإشكالية منذ عصر اليونان القديم إلى اليوم وكانت المحصلة ظهور مدارس ومذاهب نعرض لها بالتدريج.

المهم بالنسبة لنا في هذا البحث الإشارة إلى ملاك أو مناط الفعل الأخلاقي حسب الفهم الإسلامي. فما هو الحد الفاصل إسلاميًا بين الفعلين الأخلاقي والعادي؟

1. الجذور الداخلية

"الأخلاق" جمع "الخلق" بمعنى الطبيعة، واختيار هذه المفردة فيه دلالة على أن الفعل الأخلاقي يجب أن تكون له جذوره الضاربة في دخيلة الإنسان وباطنه، فيكون مظهرًا وتجليًا لإحساس من الأحاسيس الداخلية الراقية، وعليه فالفعل الذي لا يشي بموقف الإنسان من الغرائز، لا يكون أخلاقيًّا. فإذا ما مورس ضغط خارجي على أحد الأشخاص كي يشيد مستشفى أو مركزًا علميًا مثلًا، واستجاب هذا الشخص، فلن يكون عمله فعلًا أخلاقيًا لافتقاره إلى الحافز الداخلي، واقتصاره على العامل الخارجي الذي فرض على الإنسان أداء هذا الفعل.

وطبعًا يعد الجذر الداخلي شرطًا لازمًا للفعل الأخلاقي، وليس شرطًا كافيًا. فالشرط الثاني هو حسن العمل وإيجابيته. ولأجل إيضاح هذا الشرط من الواجب الإشارة إلى تقسيم القضايا في الحكمة النظرية والعملية إلى "ذاتية المعيار" و"غير ذاتية المعيار" يصنف الفلاسفة قضايا الحكمة النظرية إلى شقين:

أ: القضايا البديهية.

ب: القضايا النظرية.

المراد بالقضايا البديهية جملة القضايا التي لا يحتاج العقل لتصديقها أو تكذيبها إلى أدلة وبراهين. فتكون القضية إذ ذاك "ذاتية المعيار"، كما في قولنا أن الجزء أصغر من الكل.

أما القضايا النظرية فيتوقف تصديقها أو عدم تصديقها على الأدلة والبراهين وإمعان النظر، لذلك كانت القضايا البديهية ذات دور محوري في حل القضايا النظرية، وبتجاهلها تنغلق أبواب العلم والمعرفة في وجه الإنسان.

وينسحب نظير هذا التصنيف على قضايا الحكمة العملية أيضًا، والفارق بين البديهيات والنظريات في الحكمتين شيء واحد، المطلوب في قضايا الحكمة النظرية معرفتها والعلم بها، كأن نقول "لكل ظاهرة سبب وموجد"، فالقضية إذن لا تمتد بطبيعتها إلى دائرة العمل والممارسة، بينما المطلوب النهائي في قضايا الحكمة العملية، هو العمل بها وتطبيقها، كأن نقول العدل حسن، والظلم قبيح.

في القضايا الأولى نروم المعرفة، وفي الثانية نسعى إلى العمل بعد المعرفة. وعلى كل حال، تتوزع كلا الفئتين إلى قضايا بديهية وأخرى غير بديهية ونستخدم في تقسيم قضايا الحكمة النظرية مفردتي "البديهيات" و "النظريات". أما في تقسيم قضايا الحكمة العملية فلا نستخدم لفظتي "البديهيات" و "غير البديهيات". وإذا أردنا استعمال تعبير جامع لكلا الحكمتين، فمن المناسب أن نقول:

أ. قضايا ذاتية المعيار.

ب. قضايا غير ذاتية المعيار.

ليس سبب هذا التقسيم في كلا النوعين من القضايا واضحًا. فلو كانت كل القضايا في الحكمتين نظرية أو "غير بديهية" لتعذر كشف الحقيقة وامتنع، فالمشكلة لا تعالج المشكلة. لذا توجب أن يكون بين أكوام القضايا "النظرية" و "المعقدة" قضايا جليلة تمثل مفتاح حل القضايا الأخرى. ولا فرق في هذا بين الحكمة النظرية والحكمة العملية.

2. حسن الفعل وقبحه

ذكرنا أن الهدف النهائي من معرفة قضايا الحكمة العملية هو تطبيقها والعمل على وفقها. ويوزع العقل قضايا هذه الحكمة إلى حسنة وقبيحة. وهو مكتف بذاته في نعتها بالحسن والقبح، ولا يحتاج إلى غيره، فيصف على نحو قاطع هذه القضية بالحسن وتلك القضية بالقبح، فيقول: العدل حسن وينبغي العمل به، والظلم قبيح ويجب الانتهاء عنه. ولا يشترط في الفاعل سوى الوعي والاختيار.

وهذه الأحكام بشأن العدل والظلم، من الأحكام الذاتية المعيار لهذه القوة الإدراكية.

إذًا، فالأخلاق جزء من مقولة "الجمال" وطريق اكتشافها هو العقل الذي يتعامل مع الفعل ذاته مجردًا عن كل شيء عدا حسنه أو قبحه، فيعلن هل هو إيجابي أم سلبي.

وبالمستطاع تصنيف الجمال إلى حسي جسدي، وآخر روحي. والجمال من المفاهيم التي يستطيع الإنسان إدراكها، لكن يعجز عن صبها في قالب التعريف. فهو "يدرك ولا يوصف". ومع ذلك يمكن القول: حقيقة الجمال هي توازن وانسجام أجزاء الشيء الجميل. ومثل هذا بالضبط يصدق على جمال الروح. خلق الإنسان بمواهب وقابليات مختلفة، وكل واحدة من هذه القوى تعد من عوامل حياة الإنسان وبقائه شريطة أن يقوم التعادل والتوازن بين هذه القوى، وينتهج سبيل الاعتدال في إشباع كل قوة وتلبية احتياجاتها، ويتحاشى الإنسان حالات الإفراط والتفريط. وعندئذ تستعيد الروح جمالها وتمهد الأسباب لحكومة العقل وسلطانه.

وبالتالي، فالأخلاق هي ذلك السلوك الإنساني النابع من الروح الجميلة، وجمال الروح ممكن في ظل تعادل القوى الإنسانية وتوازن النزعات والميول.

من هذا البيان، يمكن استخلاص أن الأخلاق قد تكون من سنخ الجمال، ويتسنى أيضًا أن تكون من سنخ العدالة. ذلك أن جمال الروح لا يتحقق إلا في ظل الاعتدال واستخدام كل قوة من القوى الإنسانية بعيدًا عن الإفراط والتفريط. فعلى الإنسان استخدام القوة الشهوية والقوة الغضبية وإلا انقطع نسل البشر. ولكن يجب في الوقت ذاته عدم تسليم زمام الحياة لهاتين القوتين بل يتعين تحكيم العقل في استخدام هذه الميول واستثمارها.

إن جمال الجسم يتكون في عالم الرحم الذي لا سبيل للإنسان إليه. بينما جمال الروح المتاح بفضل إيجاد التعادل بين القوى والموازنة بين استثمار النزعات الداخلية، نمط من الجمال يخضع لإرادة الإنسان واختياره. فالروح الجميلة المعتدلة تستتبع سلوكًا جميلًا. أما الروح غير الجميلة غير المعتدلة فتصدر عنها أفعال قبيحة سلبية.

يستفاد من الآيات القرآنية والأحاديث الإسلامية أن حقيقة الفعل الأخلاقي كامنة في حسنه أو قبحه. وما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهما واجبان إسلاميان إلا دعوة لجملة أمور أخلاقية حقيقتها كونها "معروفًا" أو "منكرًا" وسنبين لاحقًا أن مديات الأخلاق في الإسلام أوسع من الأخلاق التي يدركها العقل العملي. لذا كانت بعض الفرائض والواجبات أو المنكرات من القضايا الأخلاقية التي كشف عنها الوحي، ولم يكن باستطاعة العقل تشخيصها. يقول القرآن عن النبي الأكرم "ص" أنه "يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر[1]" والمعروف والمنكر أو الإيجابيات والسلبيات، بعضها يعرفها العقل العملي من تلقاء نفسه، وبعضها يدل عليها الوحي الإلهي.

وعليه يتساوى ما نقل عن أفلاطون حول حقيقة الفعل الأخلاقي وأنه من سنخ الجمال، وما ذهب إليه الفلاسفة المسلمون والمتكلمون العدليون.

وحيث قد اتضح ملاك الفعل الأخلاقي في الفهم الإسلامي، أن الأوان للإشارة إلى مرتكزات وخصائص النظام الأخلاقي في الدين الحنيف:

3. الإنسان خليط من المادة والمعنى

تفيد النظرة السطحية للإنسان أنه موجود مادي، يخرج إلى العالم بعد أشواط من النمو الأولي في رحم الأم، ليبدأ مساره صوب التكامل المادي، وبعد اجتياز مراحل الطفولة والمراهقة والشباب والكهولة والشيخوخة، ينطفئ مشعل حياته إلى الأبد، ولا يعود شيئًا مذكورًا.

إنها رؤية لا ترى الإنسان مخلوقًا لغاية أو هدف، بل ليس من المؤكد من أين جاء هذا الإنسان ولماذا؟ وإلى أين هو سائر؟

أما من منظار المتألهين – لا سيما فلاسفة الإسلام والمتكلمين المتعمقين – فالإنسان مزيج من المادة والمعنى، من الجسم والروح، وفي نظرة أعمق لا يكون الحديث عن امتزاج شيئين صحيحين، إنما حقيقة الإنسان هي روحه ونفسه، وما البدن إلا أداة لتكامل الروح فالإنسان يرى المرئيات بعينه، ويسمع المسموعات بأذنه، لكن الرائي والسامع الحقيقي لهذه الأشياء ليسا العين أو الأذن، بل الروح الإنسانية التي تستخدم العين والأذن أداتين للرؤية والسماع.

وقد أثبت الفلاسفة المسلمون تجرد الروح عن المادة بالبراهين الفلسفية، ويحاول الغربيون اليوم الوصول إلى ذات النتائج بالأساليب التجريبية. ولا يسعنا في هذا المقام سرد البراهين الفلسفية على تجرد الروح. لذا نكتفي لعرض وجهة النظر القرآنية بالإشارة إلى آيتين كريمتين، كي يتضح أن القرآن يرى النفس الإنسانية أسمى وأرقى من المادة:

أ. يلمح القرآن الكريم في سورة المؤمنون بعد إشارته إلى مراحل خلق الإنسان في رحم الأم، إلى المرحلة النهائية من الخلق فيقول: "ثم أنشأناه خلقًا آخر"[2].

إنها خلقة تختلف جوهريًا عن الأطوار السابقة من الخلقة، لأن الأطوار السابقة محصورة كلها في إطار الخلق المادي. وهي أولًا النطفة، وثانيًا العلقة، وثالثًا المضغة، رابعًا تحول المضغة إلى عظام، وخامسًا اكتساء العظام لحمًا.

وحينئذ ينتهي البيان القرآني لهذه المراحل الخمس، فيشير إلى المرحلة السادسة بلهجة متفاوتة، فيقول: "ثم أنشأناه خلقًا آخر".

إنه خلق جديد لأنه طور تكتسب فيه المادة تكاملًا آخر، وتحتضن في داخلها الروح.

ب. يروي القرآن في سورة السجدة شبهة منكري المعاد القائلة أن موت الإنسان يحدث بسبب تفرق أجزاء بدنه، وبذلك تتفرق شخصيته وتفنى، وإذا ما جمعت الأجزاء تارة أخرى إلى بعضها، فلن تعود إليها الشخصية الأولى التي كانت فيها، بل ستكتسب شخصية جديدة لا يصح أن تتحمل المسؤولية حيال أعمال الإنسان السالفة.

ويقول **القرآن** ردًا على هذه الشبهة: "قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون"[3].

والآن، يجب أن نرى كيف تمثل هذه الآية ردًا على شبهة الكافرين المعتقدين أن موت الإنسان وتفرق أجزاء جسمه يغني شخصيته إلى غير عودة، فتكون شخصيته الثانية شخصية أخرى لا تتحمل مسؤولية فعال الشخصية الأولى.

خلاصة الرد أن موت الإنسان لا يعني فناء شخصيته، إنما يبقى قوام حقيقة الإنسان محفوظًا عند الله. فملك الموت يستوفي حقيقة الإنسان ويرجعها إلى الله.

تصرح هذه الآية بأن ما يغنى ليس حقيقة الإنسان، فحقيقته تؤخذ من قبل ملك الموت، وكلمة "يتوفاكم" هنا بمعنى "يأخذكم".

بعبارة أخرى، متى ما شكلت المادة شخصية الإنسان، تصح الشبهة المذكورة وتمثل أشكالًا متينًا حيال عقيدة المعاد. أما إذا كانت شخصية الإنسان فوق المادة والماديات، فسترتفع فوق أي فناء أو انحلال، إنما تنتزع الروح من الجسم بواسطة ملك الموت وتبقى عند الله إلى يوم القيامة، ثم تعود كل نفس إلى جسدها الدنيوي.

4. الإنسان مخلوق مخيّر

الأخلاق مقولة تختص أساسًا بالمخلوق الواعي المخير. فمعلم الأخلاق يوصي البشر بالقيم الحسنة، ويحضه على سلوك طريق واجتناب آخر، فيضعه في الاتجاه الذي يبلغ به التكامل. وغنى عن القول أن هذا الأمر خاص بموجود يستطيع تشخيص القيم، فيفضل بمنتهى وعيه تعاليم السعادة على سبل الشقاء. وإذا اعتبرناه فاقدًا للاختيار والحرية، وسائرًا من دون إرادة في أحد هذين الطريقين، فسيعود إرشاده وتعليمه ضربًا من اللغو.

وتنطوي قضية الحرية الإنسانية على الكثير من التعقيدات. فالإنسان يلاحظ من ناحية إمارات الجبر في حياته، ومن ناحية أخرى يلمس حقيقة الحرية والاختيار في داخله. لذلك يبقى حائرًا هائمًا مدة من الوقت إلى أن يختار إحدى الفكرتين.

فهو يرى من جهة، أنه لم يدخل هذه الحياة بحريته واختياره على الإطلاق، كما لم يختر البيئة التي ينشأ فيها وبذا فإن عوامل الوراثة والثقافة والبيئة تترك آثارها لا إراديًا في روحه ونفسيته، وبالتالي يتكون في ضوء هذه العوامل السابقة لولادته واللاحقة لها، ويبقى مقيدًا بها، تحتم عليه السير في طريق معين.

ولو كان حرًا مختارًا على الإطلاق، لما صح أن تهيمن عليه هذه العوامل الخارجية هذا من جانب، ومن جانب آخر يشعر الإنسان بعد أن ينمو ويكبر ويصل درجات التعقل والإدراك بحقيقة الحرية في أعماقه، ولا يرى نفسه مجبرًا على القيام بهذا الفعل أو ذاك. صحيح أنه دخل هذا العالم بغير اختياره، ونشأ في بيئة لم يخترها بنفسه، لكنه الآن يمسك بزمام حياته، ويستطيع مكافحة المشكلات والعقبات بشكل من الأشكال، ويوجه مسار حياته بأي اتجاه يشاء.

ليس معنى الحرية أن تكون كل خصوصياته من لحظة الولادة إلى لحظة الموت تحت تصرفه.

أو أن يختار عوامل الولادة والتربية بحرية مطلقة. إنما حقيقة الحرية هي أن يشعر الإنسان بفارق كبير بين حركة اليد وحركة القلب، فيرى نفسه مسؤولًا عن الأولى، وغير مسؤول عن الثانية. وبالتالي فهو حر خلال طريق الحياة في ممارساته وأفعاله.

صحيح أن بعض المصائر في هذه الحياة خارجة عن إرادة الإنسان، فقد يذهب الإنسان ضحية حريق خلافًا لإرادته. أو يصاب بسيول وزلازل، أو تطاله معارك ليس له دور فيها، على أنه يشعر بحريته في جملة من الأفعال، ولا يرى أي مانع أو رادع يقف بوجه إرادته، وأنه لا يتحمل أية مسؤولية عن الأعمال الخارجة عن حيز إرادته واختياره فمسؤوليته تقترن فقط بالممارسات التي يمسك هو بزمامها، وبمستطاعه توجيهها إلى حيث يشاء.

ونذكّر هنا بقول القرآن الكريم حول حرية الإنسان: "من عمل صالحًا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد"[4]. ويقول في آية أخرى: "وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر"[5].

5. الإنسان ونزعاته المتضادة

خلق الإنسان بنزعات وغرائز متفاوتة. والواقع أنه خليط من نزعات متضادة غير متناسقة في داخل الإنسان ثمة ميول مختلفة ومتضادة، فمن ناحية ينطوي المخلوق البشري على حب الحق، وطلب الحقيقة، وتوخي العدالة، ونشدان المثل العليا، ومن ناحية أخرى تضغط عليه نزعات الأنانية وحب المنفعة، وعبادة المناصب، وطلب المال، وتحري الشهرة. القسم الأول من هذه الميول نابع من روحه الملكوتية وفطريته السامية، بينما ينبثق القسم الثاني من غرائزه الدانية التي تضمن بقاءه وتتحكم بتحركاته وتصرفاته الحياتية، ولها جذورها العميقة في نفس الإنسان إلى درجة قد تمسك معها أحيانًا بزمام مصيره وترسم مسار حياته، وتحد بطغيانها وتمردها المذهل من نفوذ العقل وبصيرته.

وينظر الإسلام باحترام لكل الغرائز، فكلها ذات دور وتأثير في تألق الوجود الإنساني. ولو عُمِدَ إلى كبت بعضها وإطلاق العنان للبعض الآخر، لما بلغ الإنسان كماله المنشود، فإذا كانت نزعة العبودية لله وطلب العدالة والميول صوب مساعدة الآخرين والمعوزين، من أسباب الكمال وبواعثه، فإن حب الذات ونزعة الغضب والشهوة تعد هي الأخرى من أركان الحياة الإنسانية.

والإنسان الخالي منها إنسان متروك أما أن يسلم الروح إلى باريها في زوايا العزلة، وأما أن يذهب لقمة سائغة للذئاب.

بناء على هذا يتوجب أن تقترن العبادة وطلب الحق، بالعمل والسعي الدنيوي، ليتسنى للإنسان بلوغ الكمال المطلوب باستثمار كلا الجانبين. فحينما دعا الإسلام إلى التزاوج وتلبية الحاجة الجنسية، قرر ذلك في إطار العفاف، ونهى عن أي إفراط أو تفريط في الشهوات.

6. معيار الإيجابي والسلبي

هناك معياران لتشخيص المبادئ الأخلاقية والقيم الروحية السامية هما:

أ. الأمور الفطرية والنزعات الخلقية.

أثبتنا فيما مر بنا أن خلقة كل فرد مقترنة بجملة من النزعات، فهو يميل ذاتيًا ولا شعوريًا إلى العدل والوفاء بالعهد ورد الإحسان بالإحسان ومساعدة العاجزين، ويعتبر هذه الممارسات حسنة، وفاعلها محسنًا خيرًا.

ويستقبح مقابل ذلك جملة أمور، ويبغض أي ميل نحوها، والمبادئ الأخلاقية في الإسلام تقوم على أساس الفطرة والخلقة. فالنظام الأخلاقي الإسلامي لا ينحرف ولو بمقدار شعرة عن هذه الفطرة. لذلك كانت الأخلاق الإسلامية عالمية تشمل كافة البشر، ولا تحدها حدود أو قيود.

ب. أنوار الوحي.

ومع هذا فإن نور الفطرة – وحتى ضياء العقل – يعجز أحيانًا عن تشخيص القيم الخيرة وأضدادها – وهنا يبدو الوحي أوثق السبل لمعرفة الحقيقة والواقع. لذلك كانت بعض المحرمات والواجبات من التعاليم الأخلاقية التي ربما تعذر على فطرة الإنسان وعقل الناس البسيط تحديد المصالح المتوخاة منها. أما الوحي الإلهي المحيط بكل شيء فقد قرر جملة من المحرمات والواجبات للبشر.

يقول الإسلام أن تقصي عيوب الآخرين، والتدخل في أسرار الناس واستغابتهم والتفاخر بالعنصر، ممارسات ممنوعة بتاتًا، وكذلك الانتفاع من القمار وشرب الحرام وأكل الميتة. فإذا أدرك العقل فلسفة تحريم هذه الأشياء فنور على نور، وإلا كنا مؤمنين بهذه الدساتير توكًا على عصمة الوحي، فلا نشك أنها مشرعة لأجل إسعاد البشر.

الفطرة والعقل الإنسانيان يدعوانه للخضوع أمام الله الذي من عليه بكل هذه النعم، بيدأن الطريقة الصحيحة للشكر والثناء غير معروفة لدى الإنسان، لذلك يهرع الشرع لمساعدته، فيدله أن أسلوب الشكر والثناء يتمثل في الصلاة والصيام.

وهكذا ترتكز الأخلاق الإسلامية على ركنين:

أ. الميول الفطرية والمعارف الوجدانية التي تحدد الحسن من القبيح.

ب. الوحي الإلهي، وإرشادات الخالق فيما يخص الممارسات المفضية إلى السعادة أو الشقاء.

7. العمل الصالح والينبوع الطاهر

يرتكز تقييم أفعال الإنسان في العالم المعاصر، على النظر لظاهر الأعمال وشكلها الخارجي، فمثلًا إذا تضرع أحد إلى الله أمام الناس أو راح يعول ويبكي من خوف الله ويستغفره ويتضرع إليه أو إذا بنى رجل ثري مستشفى خيريًا للفقراء، فإن الناس ستثني عليه وعلى فعله، ولا تقيم وزنًا لنيته وحافزه من هذا العمل، وهل أنه بكى وتضرع من خوف الله حقًا؟ أم أنه أراد الرياء والنفوذ إلى قلوب الناس؟ وهل شيد الثاني مستشفاه بدوافع إنسانية حقيقية ولمجرد مساعدة المعوزين والفقراء، أم أن أغراضًا مادية تقف وراء فعله الحسن هذا، كأن يريد الفوز في انتخابات مدينته أو محافظته؟

مع أن ظاهر العمل يمثل أحد العناصر المهمة لتقييمه في النظام الأخلاقي الإسلامي، ولكن ما لم يصاحبه عنصر آخر، لا يتسنى اعتبار فعل الإنسان عملًا أخلاقيًا خيرًا. والعنصر الآخر هو النية الطاهرة التي تعد ينبوع العمل واصله. من هنا إذا كان الفعل الحسن صادرًا عن نوايا مادية لم يكن جديرًا بالتقدير والثناء، ولا يعد عملًا قيميًا. وبهذا الشرط يبتعد النظام الأخلاقي الإسلامي عن كل النظم الأخلاقية في اليونان القديم والغرب المعاصر ببون شاسع، ولا يقر بأخلاقية العمل إلا إذا صدر عن إيمان الفاعل بالله وإخلاصه له، لا عن أهوائه ونزواته الشخصية.

كان مشركو مكة في عصر الرسالة وثنيين، لكنهم ينهضون بتعمير المسجد الحرام على أحسن وجه – لذلك أصابوا منزلة رفيعة في قلوب المجتمع العربي آنذاك، بيدأن القرآن يؤكد بكل صراحة أن عملهم هذا بلا قيمة، مشددًا على ضرورة أن يكون العمل الصالح ثمرة في شجرة الإيمان والإخلاص. فالعمل إسقاط لنية الإنسان وانعكاس لها، لذلك يتلون بألوانها ويكتسب نكهتها، فأنّى لهؤلاء النفر الكافرين المقرين بكفرهم أن يعمروا بيوت الله التي هي للمؤمنين بالله. يقول الباري عز وجل في هذا:

"وما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون"[6].

وفي الآية التالية، يقرر أن عمارة المساجد من اختصاص المؤمنين بالله واليوم الآخر، ومقيمي الصلاة ومؤتي الزكاة والذين لا يخشون إلا الله:

"إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وأتى الزكاة ولم يخشى إلا الله"[7].

8. النية الحسنة بديل العمل الصالح

أحيانًا تحل النية الحسنة محل العمل الصالح وتعد بديلًا عنه. وهذا لا يعني أن المدرسة الأخلاقية في الإسلام تدعو إلى الاكتفاء بالنوايا الحسنة وعدم الاكتراث بالأفعال والتطبيقات العملية إنما الغاية من هذا الفهم إعداد كافة شرائح المجتمع للأعمال الخيرة، حتى يبادر من كانت له المقدرة إلى العمل، وينمي غير القادر محفزات العمل الصالح في سريرته، حتى إذا واتته المقدرة هرع إلى الحسنى والتحقق بصفوف المحسنين.

حينما انتصر جيش الحق في معركة الجمل، جاء رجل للإمام علي عليه السلام وقال له كنت أود لو كان أخي معنا يشاركنا هذه المعركة، وليرى كيف نصرك الله على أعدائك، فقال له الإمام "أهوى أخيك كان معنا؟ فقال: نعم، قال: لقد شهد ..."[8].

وليس أخوك فقط بل كل من سيولدون لاحقًا ويسرّون لنصرنا إذا سمعوا به، سيثابون ويؤجرون كما نؤجر.

والنتيجة هي أن الإسلام يشدد أعظم التشديد على تطهير النية وإصلاح النوازع، ويكافح بجد كل أنماط الرياء. ويكفي لهذا مراجعة آيات ذم الرياء في **القرآن الكريم**[9].

9. القضايا المطلقة الشاملة

المطلق والنسبي مفردتان شائعتان في العلوم والفلسفة، يعرف الدارسون معانيهما غالبًا. فإذا كانت القضية بلا حدود ولا تخوف، وحكمها سار في كل الأزمنة والأمكنة، فهي قضية مطلقة، أي أنها تشمل كل المصاديق، ولا يشذ عنها شاذ، فمثلًا قضية أن الحديد يتمدد بالحرارة، ذات إطلاق وشمول، لأن صدقها لا يتوقف على زمان أو مكان بذاته، فحكمها لا يتغير في أي زمان أو مكان، ولا يستلزم إلا تماثل الظروف، أما أن تكون بناية من الأبنية كبيرة أو صغيرة فهذا نعت غير ثابت، لأنه منوط بالبناية التي نقيس عليها البناية الأولى. فقد تكون البناية صغيرة بالقياس إلى أخرى أكبر منها، وكبيرة بالنسبة إلى ما هو أصغر منها، لذا لا يمكن اعتبار الصغر أو الكبر صفة ثابتة لها.

والقيم الأخلاقية في المدرسة الإسلامية تتمتع بإطلاق وشمولية مؤكدة، لأن المحاور التي تعتمدها ذات إطلاق وشمول عام. ومحاور القضايا الأخلاقية في الإسلام هي:

أ. النزعات الخلقية وميول البعد المتسامي في الإنسان.

ب. الوحي الإلهي حينما تعجز الفطرة والعقل عن تحديد القيم.

حول المحور الأول، نذكر بأن الميول المتسامية واحدة لدى جميع البشر، فالعدل حسن جميل والظلم سيئ قبيح في فطرة كافة الناس. والقضية المرتكزة على مثل هذا المحور تصطبع بلونه وتغدو عالمية مطلقة، لذلك يرى كل أفراد البشر بذوقهم الفطري أن مجازاة الإحسان بالإحسان جميلة، وبالإساءة قبيحة. والقضية النابعة عن مثل هذا المعين، تبقى فياضة متفجرة إلى الأبد.

طبعًا، قد تكون بعض المدارس الأخلاقية على هذه الشاكلة أيضًا، على أن المدرسة الأخلاقية الإسلامية تتسم بوضوح خاص في هذا المضمار، فالمدرسة التي ترى محور الحسن والقبح في اللذة الغريزية والتصور الشخصي للجمال، والمنفعة المجتمعة الحاصلة، لا تستطيع تقديم نظام أخلاقي متناسق للبشرية. فالملذات الشخصية كسموم الأفاعي والعقارب حيوية جدًا لهذين الحيوانين، وقاتلة فتاكة لمن يلسعانه. وربما كان المشروع مفيدًا لمجتمعٍ ما مضرًا لمجتمع آخر. وبذا فإن اعتبار النفع الشخصي أو الاجتماعي محورًا لتشخيص الممارسة الأخلاقية مؤشر إفلاس وتخبط في رسم ملامح نظام أخلاقي متماسك.

وقد يقال أن القضايا الأخلاقية الإسلامية "نسبية" هي الأخرى. فالصدق مثلًا وهو قيمة أخلاقية ليس مجندًا ولا محمودًا في كل الأحوال، فإذا أدى إلى هلاك إنسان برئ، بدا قبيحًا مذمومًا، وفي المثل الفارسي أن "الكذب المصلحي خير من الصدق المهلك".

والرد على هذا الإشكال حول حسن الصدق وقبح الكذب، واضح جدًا، إذ يتوجب القول عن الصدق في مثل هذه الظروف: أساس الصدق لا يفقد حسنه وجماله أبدًا، بيدأن العقل في هذه الظروف الخاصة لا يسمح للإنسان بالصدق، لأن إنسانًا شريرًا يريد إساءة استغلال هذا العمل الخير، بسفك دم إنسان مسكين. وبالتالي فإن الامتناع عن هذا العمل الحسن، لا يفيد انتفاء حسنه ونقض إيجابيته، إنما يعني الحيلولة دون جور الجائرين المتربصين الدوائر بإنسان مظلوم، ويريدون مد العمل الصالح جسرًا إلى ممارسات شيطانية مجرمة.

وبشأن الكذب الاضطراري ننوه إلى أنه قبيح مذموم حتى في مثل هذه الظروف ولكن بما أن الإنسان يقف هنا إزاء مفترق طريقين، إحدهما ارتكاب عمل قبيح، والثاني الانزلاق لعمل أقبح، لذا يحكم العقل بالصبر على القبيح ويسمح للمرء بالكذب، ويرجح قبيحًا على قبيح آخر، والمسألة كحالة إنقاذ إنسان تتوقف على كسر شباك الآخرين. فالعقل يجيز هذا القبيح لأجل هدف أسمى، لكنه لا ينكر إطلاقًا قبح العمل وسلبيته.

10. القيم الأخلاقية وضمان التطبيق

بصرف النظر عن آراء فريق من علماء الأخلاق يجعلون اللذة الشخصية محورًا للنظام الأخلاقي، فإن كافة النظم الأخلاقية توصي بجملة أمور تتعارض غالبًا مع النزعات الفردية للإنسان وتطبيق مثل هذه الدساتير بما هي عليه من طبيعة وخصائص، يستلزم ضمانة تنفيذية تصحب الإنسان في سره وعلانيته، وتحضه على أداء الحسنى والإقلاع عن السوء. لكن للأسف أما لا يوجد في النظم الأخلاقية البشرية ضمانة تنفيذية، أو أنها إذا وجدت، لا تتعدى سياط الوجدان وضغوط الضمير. والحال أن هذه الضمانات لا تصمد لسيول الأهواء والنزوات الجامحة على شكل شهوةٍ وغضب، ولن يكون مصيرها سوى الهزيمة النكراء.

من خصائص النظام الأخلاقي في الإسلام أنه يتوكأ على الدين، لذلك تقترن الارشادات الحاثة على اتيان الحسنات واجتناب السيئات بمسؤولية ثقيلة، مما يضفي على النظام الأخلاقي في الإسلام تألقًا وعظمة مميزة.

إن الأخلاق المرتكزة إلى الدين، بالشكل الذي تغدو معه المعتقدات الدينية والإيمان بالثواب والعقاب الأخروي رصيدًا وضمانة إجرائية للتعاليم الأخلاقية، هي السبيل الذي اختطته الأديان السماوية، لا سيما الدين الإسلامي الحنيف، فاثمر طوال أربعة عشر قرنًا نتائج باهرة.

الاعتقاد بإله مطلع على باطن الإنسان وظاهره، ولا يخفى عليه شيء في السماوات ولا في الأرض، وهو يعلم بعدد ذرات الكون اللامتناهية، إله هو الحكم يوم الجزاء، والذي يفتح ملف أعمال الإنسان المدون من قبل الملائكة بمنتهى الدقة وبمنأى عن أي أغراض مادية، وليس هذا فحسب بل يرينا أعمالنا تارة أخرى بقدرته غير المحدودة، ويشهد علينا جوارحنا بإرادته الماضية النافذة، ثم يجزي كل إنسان بجزائه الحق[10]، مثل هذا الاعتقاد الراسخ المتين، أعظم رصيد للأخلاق، وهو الضمانة الطبيعية لتطبيق المبادئ الإنسانية. والواقع أنه أثمن كنز وأضخم رصيد ورثناه عن رسل السماء، وينبغي صيانته وحراسته كتراث لا يقدر بثمن.

إن قدرات الإيمان بالله والاعتقاد بجزاء الآخرة، يصل أحيانًا إلى درجات تعصم الإنسان من الذنب، وتجعل من المذنب شخصًا ملكوتيًا بريئًا.

إن قدرة الإيمان الديني على التحكم بالإنسان من الشدة بحيث لو تصرف المؤمن خلافًا لمقتضى الإيمان ومني بالهزيمة في ساحة حربه ضد العواطف والغرائز، لعاد وفكرّ فورًا بالتعويض، وعرّج على طريق الندم والحسرة لما صدر عنه من أخطاء، وسلم نفسه من تلقاء نفسه لمحكمة الدين، من دون أية ملاحقة قضائية دنيوية، طالبًا من رئيس المحكمة بكل جد معاقبته وتطهيره حتى يلتحق به يوم القيامة متخففًا من الذنوب طاهرًا من الإدران[11].

النتيجة

يمكن الخلوص من مجمل ما أوردناه، إلى محاور القضايا الأخلاقية في الإسلام، والتعرف على خصائص النظام الأخلاقي الإسلامي. فيما يلي تلخيص لها على شكل نقاط:

1. تمثل الروح في الرؤية الإسلامية حقيقة الإنسان والروح خالدة باقية بعد الموت. وينبغي أخذ الحياة الدنيوية والأخروية بنظر الاعتبار عند التخطيط لإسعاده. لذلك كانت بعض الملذات ممنوعة بوصفها منكرات، لأنها تنال من سعادته الأخروية، خصوصًا إذا قلنا أن العذاب الأخروي، هو باطن أعمالنا الدنيوية التي تتجسد في ذلك العالم وضمن ظروف خاصة على شكل جحيم والذين يتمتعون ببصيرة معمقة تشعرهم بتبعات هذه الأعمال، يعدونها من السيئات التي يجب نبذها.

2. بما أن الإنسان فاعل مخيّر، لا يعد عمله قيميًا إلا إذا صدر عن وعي وحرية تامة. فإذا سدد الإنسان ما ترتب عليه من ضرائب أو زكاة مجبرًا، يكون قد أدى الواجب، إلا أن عمله هذا لا يعد فعلًا أخلاقيًا.

3. يعني النظام الأخلاقي الإسلامي بالغرائز الساميه والدنيئة في الإنسان ويوصي بها جميعًا في ظل الاعتدال والموازنة.

4. الفطرة والوحي هما مناطا القيم الأخلاقية في الإسلام.

5. حسن العمل وجمال الظاهر لا يسبغ الطابع القيمي عليه، إلا إذا صدر الفعل عن نية طاهرة. فالرياء الذي يراد به خداع الآخرين يسلخ الأعمال عن قيمتها وبعدها الأخلاقي.

6. النظام الأخلاقي الإسلامي نظام مطلق ثابت شامل، لأن محوره الميول الإنسانية الداخلية والوحي، وكلاهما خالد شامل.

7. يتوفر النظام الأخلاقي في الإسلام على ضمانة تنفيذية، فهو ليس من سنخ التوصيات المفتقرة لأي محفزات وإلزامات.

وبمعرفة أسس النظام الأخلاقي في الإسلام، من الضروري إعادة قراءة المدارس الأخلاقية في اليونان القديم والغرب الحديث لمعرفتها بوجه أفضل في ضوء المعارف الإسلامية الأصيلة.

الهوامش

[1] سورة **الأعراف**، الآية 157، تقول الآية الكريمة {الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة، والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزوره ونضروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون}.

[2] سورة **المؤمنون**، الآية 14، تقول الآية الشريفة {ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظمًا فكسونا العظم لحمًا ثم أنشأناه خلقًا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين}.

[3] سورة **السجدة**، الآية 11.

[4] سورة **فصلت**، الآية 46.

[5] سورة **الكهف**، الآية 29.

[6] سورة **التوبة**، الآية 17.

[7] سورة **التوبة**، الآية 18.

[8] **نهج البلاغة**، الخطبة 11.

[9] سورة **البقرة**، الآيات 261 إلى 266.

[10] مضامين آيات قرآنية عديدة منها: سورة **لقمان**، الآية 16؛ سورة **سبأ**، الآية 4؛ سورة **الزلزلة**، الآيتان 7 و8.

[11] تروي صفحات تاريخ القضاء الإسلامي، الكثير من الشواهد على هذه الحالة، نحجم عن سردها درءًا للإطالة.